# أثر الفلسفة اليونانية في البلاغة العربية

د، زرواق فؤاد
جامعة سطيف2

**الملخص:**

تُعتبر البلاغة العربية - كما يرى أرسطو- فنا خطابيا بامتياز، لأنها تستخدم أدوات حجاجية واستدلالية ومنطقية للتأثير في الأخر. فاعتبرت بذلك عُدةً منهجية يتزود بها كل من الكاتب والخطيب في حواراته السياسية والقضائية والفلسفية والأدبية والنحوية. وتمحور عمل البلاغة العربية قديما في جهود كتحديد الإعجاز القرآني ، والإبانة على حدود الحقيقة والمجاز في الكلام، ومحاولة رصد مفاهيم الصدق والكذب.

ولكن البلاغة العربية- خلال تكوينها الأول- لم تكن بمعزل عن العديد من العلوم التي عاصرتها في الزمان فاستفادت منها بمستويات مختلفة ومتباينة، ومنها الفلسفة التي تشربت من معينها وتمثلت لمفاهيمها كالأقيسة والحدود و التعاريف.

وإذا كانت الفلسفة هي البحث الحر العميق- الذي يدرس الجمال والمنطق والشعور والنفس والأخلاق- فإن البلاغة هي دراسة فنون هذه المعارف وبحث الجمال فيها.

لذلك تروم هذه الدراسة محاولة الكشف عن الإفادة التي أحرزتها البلاغة العربية من الفلسفة، وكيف كُرست تلك المفاهيم في خدمة بلاغتنا، وهل أعطت ثمارا ملموسة في مجال الدرس البلاغي العربي .

**كلمات مفتاحية:** البلاغة العربية، المنطق، التجديد، أثر الفلسفة، أرسطو .

**مقدمة:**

تعتبر البلاغة من العلوم المتصلة باللغة والتي من خلالها يمكن الحكم على الأعمال الأدبية بالتقويم إمّا بالحسن وإمّا بالقبح والرداءة، فهي لاشك روح الأدب، والأدب مادتها. ونشأت عند العرب في رحاب الدرس القرآني المبارك، فانبرت على آياته الكريمة تدرسها وتحاول أن تُبيّن مكامن الجمال في عباراتها. ولعل ما جاء في القرآن الكريم من آيات بليغة تحدّت العرب لدليل على استحالة مُجاراته.

ولا شك أن البلاغة علم لا يختص به العرب فقط دون غيرهم من الأمم، ولا هي خاصة بطبقه معينه دون طبقه، أو بلسان دون لسان. فنجد اليونان مثلا سعوا- من خلال اجتهاداتهم- إلى الرقي ببلاغاتهم من خلال البحث في مسائلها وتطويرها، كما سعى العرب إلى تطوير بلاغتهم من خلال تنقيح الكلام والرقي به إلى درجه الفصاحة العالية.

ولعل الفلسفة والمنطق اليونانيين كانا من أهم العلوم التي داخلت البلاغة في شكل إسقاطات لمبادئ العلمين من قبل علماء عرب، ونقاد تأثروا بالثقافة اليونانية بعد الاحتكاك، والترجمات التي حدثت في نهاية القرن الثاني هجري، وبداية القرن الثالث الهجري مع بن قتيبة، والجاحظ، وقدامه وغيرهم .

لذلك نحاول في هذا العمل تسليط الضوء على ما أحدثه ذلك الاتصال بين الثقافتين في البلاغة العربية، وإلى أي حد بلغ تأثر البلاغة العربية بالثقافة اليونانية؟ مستعرضين في ذلك مفهوم البلاغة والفلسفة، ومنمذجين لآثار الفلسفة اليونانية في نقدنا بنموذج هو المدرسة الكلامية؛ ثم بناقد معروف في هذا الباب وهو: السكاكي، لنبين في الأخير موقفنا من المنطق الأرسطي، وهل كان فائدة للبلاغة العربية؟ أم جناية أركست بلاغتنا وعطلتها؟

**في مفهوم البلاغة:**

من التعاريف التي يجب الوقوف عليها في مفهوم البلاغة ذلك التعريف الذي ساقه الجاحظ لبلاغة عند أمم مختلفة يقول: " قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفه العقل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح

الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتصاد عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة"(1.(

ويدور معنى البلاغة - من خلال هذا القول للجاحظ - حول مجموعه من المفاهيم وهي: علم البيان؛ علم البديع ، و محاسن الكلام.

ثم إن البلاغة عند العرب لم تكن علما واضحًا و قائماً على قواعد وأسس، وإنما كانت عبارة عن معارف لغوية كامنة ومتمثلة في كلام العرب بالتوارث " فالمتكلم من العرب كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيه، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطبتهم وكيفيه تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلفها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلفها كذلك إلى أن يصير ذلك ملكه وصنعة راسخة ويكون كأحدهم"(2.(

إن العرب و بالرغم من عدم ظهور البلاغة كعلم واضح عندهم، ونقصد من ذلك العصر الجاهلي إلا أنهم تفطنوا إلى ما يمكن أن يحمله الكلام من سقطات، كما أشاروا إلى جوانب المعنى والجودة فيه، ولا أدل على ذلك من تلك التصنيفات التي كانوا يضعون فيها الشعراء فقالوا: " فلانٌ يخطئ في جوابه، ويميل في كلامه، ويناقض في خبره، ولولا أن هذه الأمور قبل كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء"(3)

إن مفهوم البلاغة التي تقوم على معاني الإيصال، و بلوغ النهاية من خلال تحقيق الفائدة وبلوغ الكفاية الموضحة للكلام يكون من خلال القدرات اللغوية التي يتمتع بها المتكلم في تعبيراته وكلامه. واللغات حسب ابن خلدون" ملكات شبيهه بالصناعة إذ هي: ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب الملكة ونقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا جعلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية المقصودة من إفادة مقصودة للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"(4)

ويمكن أن نعتبر الحوار الذي دار بين (معاوية بن أبي سفيان) و(صحار العبدري) الإرهاصات الأولى لظهور فن البلاغة منذ العصر الجاهلي. فقد قال أبو معاوية ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. قال معاوية: ما تعُدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال معاوية: وما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"(5.(

من آثار الفلسفة في البلاغة العربية ( المدرسة الكلامية):(

لاشك أن البلاغة بعلومها المعروفة قد نشأت في رحاب الدرس القرآني لهدف كشف الجانب الجمالي والفني الذي تحتويه الآيات القرآنية، وروعة وسحر البيان الذي انتظمت به حتى تكون هذه الآيات أمثله ونماذج للاستشهاد في ما بعد. ومن أجل تحقيق تكلك الغاية تضافرت جهود كل من: المفسّرين واللّغويين، والأدباء والمتكلمين، فظهرت بذلك طوائف متعددة واتجاهات مختلفة أفرزت مدرستان بلاغيتان هما: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية أو "طريقة العرب البلغاء وطريقه العجم وأهل الفلسفة"(6)

والمدرسة الكلامية هي المدرسة التي اشتهرت بها مناطق تتميز باختلاط عرقي وجنسي بين الفرس والأتراك، حمل لوائها (أبو يعقوب السكاكي) منذ أواخر القرن السادس الهجري إلى غاية العصر الحديث. وتميزت البلاغة في هذه المرحلة بطغيان الأفكار الوافدة من الأمم الأخرى فأثقلت البلاغة

بالمنطق والفلسفة وعلم الكلام و"تحولت البلاغة المسكينة إلى حدود وتعريفات وشروح وتلخيصات أبعد ما تكون عن روح البلاغة وما يجب أن يكون فيها من روعه وجمال"(7)

إن غاية ما ترمي إليه البلاغة هو الإبانة عن الأحاسيس الفنية، ومحاوله صقل الأذواق وكشف مكامن الجمال في النصوص الأدبية والإبداعات عموما. ولكن البلاغة مع المدرسة الكلامية اهتمت – أساسا- بالتعريفات، والحدود، والتقسيمات المنطقية من خلالها شروطها، فالتعريف- مثلا- يجب أن يكون" جامعاً مانعاً، واستعمال الطريقة الفلسفية المنطقية في تحديد الموضوعات وتقسيمها وحصرها والاستعانة بالألفاظ والمصطلحات الفلسفية والمنطقية في تناول الموضوعات البلاغية"(8)

ولاحظ الشيخ أمين الخولي في كتابه (فن القول) جفاف البلاغة التي تدعوا إليها هذه المدرسة من خلال غياب الذوق فيها، والذي هو الأساس في التفريق بين الكلام الجميل وبين غيره. فهذه المدرسة تمتاز بمجافاتها الأحكام النظرية وعدم الاحتكام إلى المنطق الميزاني، والاعتبار العقلي، والشعور بأن في الإنسان من قوى الحكم شيء غير هذا كله (9)

لقد كرست المدرسة الكلامية المظاهر المنطقية والفلسفية في المدونة البلاغية، وتميزت بإطلاق الأحكام العقلية على الموضوعات الوجدانية، و عدم العناية بالناحية الفنية في إدراك التراكيب وخصائصها، وكذا في استعمال المقاييس الحكمية والخلقية والعقلية في تقدير المعاني الحديثة (10)

ولا يخفى ما للمعتزلة من ثقافة عربيه راسخة استطاعوا تدعيمها بما وصل إليهم من الثقافات الخارجية لا سيما المنطق والفلسفة "ووجه الاستفادة من الفلسفة والمنطق أنها هيأت عقولهم للبحث الكلي في الأشياء ونظّمت طرائق البحث لديهم تنظيما دقيقا ، وجعلتهم أقدر على استخراج الحجج واستنباط الآراء"(11)

ولكن صنيع هؤلاء النقاد لم يسلم من الانتقاد، فهم في رأي نقاد من أمثال طه إبراهيم يمثلون الاتجاه المتأثر بثقافات أجنبية ومنهم: ابن قتيبة مثلا وكتابه نقد الشعر، وكذلك قدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر. فكل من ابن قتيبة، وقدامة بن جعفر حاولا تحويل النقد الأدبي إلى علم من خلال إخضاعه لقواعد المنطق ومقاييسه، ولكن مع ذلك فقد اعترف طه إبراهيم لابن قتيبة بتركيزه على الذوق حينما يقول:" فمنهم من استعان في نقده بطرق العلم فقد كان رأساً في العربية مؤمنا بالذوق الأدبي مقويا للصبغة القديمة في أكثر ما جاء به"(12)

أمّا إعابته على قدامة بن جعفر تحكيم التقسيمات المنطقية فهو حينما وضع لها تعريفا محصورا في ثمانية تقسيمات بنى عليها نقده للشعر عموما، وهي في نظره لا تصل إلى روح الشعر (13)

وذهب مصطفى عبد الرحمان إبراهيم في كتابه: النقد الأدبي القديم عند العرب إلى اعتبار كل ما جاء به نقاد القرن الثالث ليس من المُخترع العربي في تلك الفترة بل هو من المنقول اليوناني " فلم يكد يشرف هذا القرن على نهايته حتى كان للعرب كتب بأسرها في علم البلاغة وفي النقد الأدبي نقلت عن اليونان(...) وتلك هي الذهنية الرابعة التي جدت في النقد وهي أجنبية محضة لا تمت بسبب إلى القديم ولا ترتكز إلى أصل من أصوله المعروفة وإنما يستمد كل شيء من اليونان وتجتلب له الشواهد اجتلابا عنيفا من النقد الأدبي"(14)

لقد عمدت هذه المدرسة إلى إصدار أحكام عقلية على المسائل البلاغية، واقتباس مظاهر منطقية وفلسفية فتميزت " بالجور على الناحية الأدبية

وظواهر مختلفة ومنها الإقلال من الشواهد الأدبية وعدم العناية بالناحية الفنية في إدراك خصائص التراكيب (...) فهم يحتكمون في تقويم المعنى الأدبي إلى اعتبار عقلي فلسفي)(15)

من نماذج المدرسة الكلامية ( السكاكي):

ويعتبر كتاب مفتاح العلوم لصاحبه السكّاكي من أهم المؤلفات البلاغية فهو كتاب أبان فيه على دقه ورويّة في التبويب والتقسيم ، وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام هي: الصرف، والنحو، والبلاغة. واعتبر السّكاكي من الواجب على المتصدي لعلم المعاني والبديع الإلمام بالعروض والقوافي"(16). وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف، والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض والقوافي.

واكتسب المفتاح للسكاكي "شهره كبيرة من خلال القسم الثالث فيه و المتعلق بعلم المعاني والبيان"(17)

ولكن السكاكي ارتضى طريقه جديدة لم تكن موجودة من قبله إذ أصبح للمنطق والفلسفة سلطان مطاع لا يرد له قول، واستعان بأهم مقولات المناطقة والفلاسفة من تجريد وتفريع و تقسيم وتعليل، على أنه وإن تجاوز سابقيه من ناحية الاستعانة بتلك العناصر كالجرجاني والزمخشري، فإنه من ناحية ثانية لم ينتبه إلى أنه ضيع أمور تتعلق بالذوق والطاقة الحسية. يقول الخطيب القزويني:" وهو وإن فاق عبد القاهر الجرجاني في التقسيم والتبويب، وتقريب الأحكام فلم يدرك شأوه لطف الحس وصفاء الديباجة وبراعة الكلام"

إن التزام السكاكي ومحاولته تصنيف البلاغة العربية وإخضاعها لقوانين تشبه تلك التي تحكم النحو وهي" قوانين تسبك في قوالب منطقية جافة أشد ما يكون الجفاف"(18)

وبدأ السكاكي في الجزء الثالث من المفتاح بتعريف علم المعاني والذي قدمه على علم البيان، لأنه منه بمثابة الأصل من الفرع يقول: " لمّا كان علم البيان أسبق من علم المعاني، لا ينفصل عنه إلا بزيادة اعتبار، وجرى منه مجرى المركب من المفرد لا جرم آثرنا تأخيره، فعرف علم المعاني بأنه: تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"(19)

فعلم المعاني علم يُعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق مقتضى الحال، ونظيره – على حد قول بهاء الدين السبكي- صاحب كتاب عروس الأفراح : " علم تعريف الطبّ بأنه علم يُعرف به أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة"(20)

وعقد السكاكي فصلا في ضبط علم المعاني والكلام فيه، وبدأ بتمهيد تكلم فيه على أن مقتضى الحال يختلف – وبتفاوت – من متكلم إلى آخر، وهو في ذلك ينبّه إلى ضرورة تعلم علم من علوم المناطقة والفلاسفة وهو: علم الاستدلال بالإضافة إلى علم العروض. وفي هذا يقول السكاكي" إن التعرض لخواص تراكيب الكلام موقوف على التعرض لتراكيبه، لكن لا يخفى عليك- حال التعرض لها منتشرة- فيجب المصير إلى إيرادها تحث الضبط بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار"(21)

وحينما استهل السكاكي حديثه عن البيان لم يُورد تعريفا له؛ لأنه أدرجه حينما عرّف علم المعاني. ولا بأس أن نُورد له تعريفه لعلم البيان بالعودة إلى ذلك في تعريفه لعلم المعاني يقول " وأمّا علم البيان فهو معرفة إيراد الكلام في طرق مختلفة بالزيادة في وُضوح الدلالة عليه وبالنقصان، يحترز

بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"(22)

ويقسم السكاكي الدلالات إلى قسمين منها ما هو وصفي، ومنها ما هو عقلي. فدلالة اللفظ في الأصل قد تكون لما وُضع له في أصل الاتفاق، وقد تكون لغير ذلك، وهو عندما يتكلم عن اللزوم الذهني لا يشترط فيه إجازة العقل له بثبوته فيه" بل يكفي أن يكون ما يثبته اعتقاد المخاطب إمّا لعرف أو لغيره"(23)

و يعتبر السكاكي علم البديع مما يُصار إليه من الفنون في تحسين وجه الكلام فالبديع هو" علم يُعرف به وُجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة وضوح الدلالة"(24)

وعلم البيان ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع للفظ. فأمّا ما يختص بالمعني فمن ذلك: المطابقة، المقابلة، والمشاكلة، والجمع بين المتشاكلات، الإرصاد أو التسهيم، والمزاوجة واللف والنشر، والجمع والتفريق، وتأكيد المدح بما يشبه الذم والتوجيه، وسَوْقُ المعلوم مساق المجهول، والاعتراض والإشباع. وأمّا ما يختص باللفظ فمنه: التجنيس والاسجاع والترصيع.

لقد كُتب للسكاكي أن يعيش في عصر طغت فيه الفلسفة والمنطق فكانت الأساليب العربية" تُقاس بحدود المنطق ورسومه، ولا يقام لها وزن إن لم يُجَلّلهَا بميسمه"(25)، وهو ما فرض على السكاكي أن يحشو كتابه بذلك الكم الهائل من المصطلحات الشائعة لدى المناطقة والمتكلمين مثل: الخيال والوهم و والعقل والإدراك والوجدان، وحاول السكاكي- في عمله على التقسيمات والحدود والتعريفات- وضع قوانين مثل التي تضبط علم النحو، ولكنه لم يكن يدري أن ذلك كله" إيذانا بتحجر البلاغة العربية وجمودها جمودا كبيرا إذ ترسبت في قواعد وقوالب جافة وغدا من العسير أن تعود إليها حيويتها ونضارتها القديمة"(26)،ومن جهة ثانية فإن الكثير من الباحثين يشهدون للسكاكي بالتفوق والبراعة، فياقوت الحموي يعتبر السكاكي" علّامة إمام في العربية والمعاني البيان والأدب والعروض والشعر"(27)، وما شهادة ابن خلدون فيه إلا إقرار بمكانته حيث يقول:" ثم لم تزل مسائل الفن تكتمل شيئا فشيئا إلى أن محّص السكاكي زبدته، وهذّب مسائله ورتب أبوابه ... وأخذ المتأخرون من كتابه ولخّصوا منه"(28)

إن فضل السكاكي في تبويب وتقسيم البلاغة لا ينكره إلا جاحد نعمة، فهو قد رسم المسارات التي اتبعها من جاء بعده، ولكن للسكاكي ميزة لم تكن موجودة في غيره من المشتغلين بهذا الميدان فقد كان متأثرا بالمنطق وعلوم الكلام الفلسفية والنحوية، لذلك لم يستطع في مفتاحه أن يُبعد هذا التأثر، وطغت عليه الحدود والتقسيمات والتفريعات، وتاهت البلاغة في متاهات المنطق والفلسفة معه.

إن هذا الكلام ليس اتهاما ولا انتقاصا من مجهودات السكاكي فالرجل " استطاع أن يُسوي من نظرات الجرجاني والزمخشري علمي البيان والبديع"(29)، ولكن من جهة ثانية فإن كثرة الشُّراح الذين تناولوا مفتاح العلوم دليل على استغلاق فهمه، واستحكام صنعته كل ذلك استدعى النظم فيه وفي كل مرة من زاوية مغايرة، ولعلنا أشرنا إلى أن السكاكي قد أثّر في من جاؤوا بعده وأصبح منهجه شائعا ومتبعا، وتفسير ذلك أن شروحات من جاؤوا بعده لم تكن تخرج عن منهجه وطريقته فكانوا" متأثرين بأصل الكتاب وبمنهج صاحبه كما كان كل منهم متأثرا بثقافته الخاصة وطبيعتها"(30)

المنطق الأرسطي جناية أم فائدة:

تعود بدايات ظهور الفلسفة والمنطق في نقدنا العربي إلى الجاحظ صاحب كتاب البيان والتبيين عندما تطرق إلى بعض المسائل البلاغية" ولكن هذه المسحة لم تسيطر سيطرة تامة ولم يظهر أثرها واضحا لأن عصر الجاحظ عصر ازدهر فيه الأدب"(31.)

لقد تفاوتت الآراء والمواقف حول ما آلت إليه البلاغة العربية من خلال استثمار التقسيمات والتبويبات المنطقية في مباحث البلاغة، فهذا أحمد مطلوب في كتابه دراسات بلاغية ونقدية يرى أن السكاكي استطاع أن يهذب مسائل البلاغة ويمحص زبدتها من خلال ترتيب أبوابها، فكان بذلك أول من قسم البلاغة إلى علمين متميزين، الأول يتعلق بالنظم وهو علم المعاني، والثاني يتعلق بالمجاز، والكناية أو بالصورة، وسماه: علم البيان وأنه لم يسمّ القسم الثالث بديعا وإنما هو عنده وجوه مخصوصة كثيرا ما يؤتى بها لقصد تحسين الكلام(32)

وفي إشارة إلى عقم التقسيم الثلاثي للبلاغة والقائم على المعاني والبيان والبديع يرى الأستاذ أمين الخولي أن هذا التقسيم لا أساس له ولا غناء فيه لأنه ينبغي أن يشمل البحث البلاغي الكلمة والجملة والفقرة والقطعة، لا البحث في الجملة والجملتين فقط، وأن ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة في البلاغة من مقدمات منطقية جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الإحساس بالجمال والتعبير عنه(33.)

لقد أفسد المنطق الأرسطي الذوق الأدبي العربي من خلال احتفاء البلاغة العربية بنزعته المعيارية الصارمة وبذلك فقد" تحولت بعد القرن الخامس هجري إلى بلاغة تعليمية بدل الارتقاء بأدواتها في التعامل مع تحليل النص الأدبي وبيان وظيفة العناصر اللغوية في بناءها الخارجي والداخلي"(34)

إن من المهمات التي يضطلع بها المنطق أنه يعلمنا طرق التفكير الصحيح من خلال بيان خواص الفكرة الصحيحة في ذاتها دون الاهتمام بالأثر الذي تتركه في نفس السامع، وإن كلاً من النحو والمنطق علم مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهد لها ويسيقها إلى تحقيق الصحة في العبارة والفكرة بعد ذلك تتقدم البلاغة لتوفير المناسبة أو المطابقة التي هي وظيفة الفن البلاغي الأصيل"(35.)

ومن المفاهيم التي داخلت معاني الملكة- في تعريف الفصاحة والبلاغة- إدخال مسائل فلسفية فيها والمتعلقة بالطبيعة والإلهية والخلقية كالكلام في الألوان والطعوم والروائح والحواس الإنسانية ومقرها، والوهم ومفاهيم تتعلق بالإيجاب والسلب، وهي لا شك مفاهيم لا علاقة لها بالبلاغة بقدر علاقتها بالعلوم العقلية الأخرى.

ولا شك أن الغاية التعليمية للبلاغة العربية قد فرضت على البلاغيين انتهاج قواعد وقوانين صارمة أقل ما يُقال عنها أنها مجحفة في حق الإبداع والأعمال الأدبية، فعُدّت البلاغة بهذا الشكل معيارية(36)

لقد طغت المعيارية التعليمية على البلاغة العربية وحصرت في الميدان الوظيفي المبني على الإقناع والتأثير، والإقناع يحصل" حين يتهيّأ المستمعون ويستميلهم القول الخطابي حين يشعرون بانفعال ما لأننا لا نقدر الأحكام على نحو واحد حينما نحس باللذة والألم والحب والكراهية"(37).هذا التأثير كان له السبب المباشر في تراجع البلاغة العربية، وما النقص الذي أصبحت تميز به دراسات الفنون الأدبية إلا لنقص في إجراءات البلاغة نتيجة المعيارية والتقعيد الصارمين الذين أصبحا يحكمان مباحث البلاغة.

ولا يمكن بأي حال من الأحول أن نغفل ما للمعتزلة- كفرقة كلامية متأثرة بالمنطق الأرسطي- من أدوار في تطوير البلاغة العربية قد لا تكن حققتها الطوائف الأخرى من لغويين ونحاة، فهذه الطائفة لم تكن محافظة مثل طائفة اللغويين في تحكيم النماذج التقليدية القديمة (38.)

ولعل ما بذله رواد المعتزلة من جهود- في مجال الدرس البلاغي- جعل الكثير يرجع البلاغة العربية في أصل نشأتها إلى" تلك الخصومة بين علماء الكلام، وأن الجاحظ المتكلم المعتزلي هو أول من اهتم بالبلاغة اهتماما كبيرا وجديا وأنه مؤسس البيان العربي"(39.)

خاتمة:

لقد وُجدت البلاغة العربية في كلام العرب قديما- وفي تعاملاتهم اليومية- بشكل نظري لها، واتسعت محاولة تجريد قواعدها وضبطها من خلال الصيغ والأوزان والتقسيمات وبذلت جهود لتدارس مباحثها، وتصدت لذلك فرق وطوائف مختلفة من العلماء والبلاغيين كُلٌّ في مجاله ومن زاوية نظره الخاصة به، وكانت فئة المتكلمين من أبرز الضاربين في أمر تطوير البلاغة العربية وتدارسها بسهم من خلال الاتكاء على رصيدهم العربي تارة، وعلى الرصيد الأجنبي تارة أخرى، ونقصد من ذلك المنطق الأرسطي والفلسفة اليونانية.

ومن خلال ما تم التوصل إليه فلا يمكن أن ننفي ما للمنطق من أثر في بلاغتنا العربية من الناحية الايجابية، كما لا يمكن إغفال التأثيرات السلبية له.

فمن الناحية الايجابية خدم المنطق الأرسطي البلاغة العربية من خلال:

1/توفير أداة ناجعة للمتكلمين يُناظرون بها خصومهم في المناظرات والمجادلات.

2/التمكن من تعلم قوانين الخطابة وتجسد ذلك في صحيفة : بشر بن المعتمر، التي يعتبرها الجاحظ ضرورة في زمن ما ليتعلم الفتيان الخطابة.

3/ضبط مباحث البلاغة العربية وتبويبها بطريقة منطقية محكمة، فالشيخ أمين الخولي يرى أن تأثر البلاغة العربية بالمنطق كان بعيد المدى في تطويرها وسير دراستها، وفي ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها.

ومن التأثيرات التي لا يمكن أن تأخذ طابع الايجابية - والتي تأثرت فيها البلاغة بالمنطق - تلك النزعة الجدلية التي سيطرت عليها حتى لتكاد تخرجها تماما عن الغرض الأدبي، ونلمس ذلك من خلال ترتيب الأبواب في المؤلفات.

1/ابتعاد البلاغة عن اللغة الحية والنصوص الأدبية من خلال إفراغها في تعاريف وقوالب جامدة ولم تعد كما كانت بنت الذوق السليم ونفحة الحس المرهف بالجمال.

2/إن البلاغة العربية على حد تعبير الدكتور مازن المبارك في كتابه الموجز في تاريخ البلاغة: لم توضع في أيدي أمينة خصوصا بعد ذهاب البلغاء الأوائل فتصدى للبحث في مباحثها علماء ليسوا بلغاء -هم أنفسهم فاستعاروا قوالب جافة من المنطق والفلسفة والكلام، فجاءت البلاغة على أيديهم خالية مما كانت به بلاغة. جاءت بلاغة مجردة من أسباب الحياة جافة لا روح فيها، معقدة لا بيان يوضحها.

3/إن الفلسفة اليونانية لم تُخترع لتناسب عقليتنا كعرب ومسلمين؛ وإنما هي علوم ومعارف أنتجها عقل لبيئته وعقليته ونمط تفكير، ولكن ضرورات المثاقفة فرضت حتمية الاطلاع على هذا النتاج الفكري الذي قد يخدم علومنا وفكرنا ، ولكن الفلسفة اليونانية كانت تقترب إلى حد كبير من المنطقية في التفكير لذلك فاستفادتنا منها

كانت تخدم فقط جوانب التقنين والضبط والتقسيم، وإلا فأدبنا وبلاغتنا فيهما من روح الجمال وقوة التأثير والذوق ما لا يُضبط بقوانين الفلسفة والمنطق، وإلا فَتُعتَبَرُ سيادة الفلسفة والمنطق على إبداعاتنا قتلا لها وتجفيفا لروح الجمال فيها.

**الإحالات:**

1الجاحظ، البيان والتبيين ،ج1،شرح غريب ألفاظه حسن أفندي الماكهاني،المطبعة العلمية،ط1،1311هـ ،ص88.

/2عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسه الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا،د. ط ، 2002 ،ص 622

/3الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ص 110.

/4ابن خلدون ، المقدمة، مصدر سابق، ص622.

/5أنظر: البيان والتبيين، مصدر سابق ،ص 96.

/6السيوطي عيسى الحلبي ،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة،ج1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،د. ط ، 1968 ، ص190.

/7خليل ندا، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، رسالة لنيل درجة دكتوراه، ص35.

/8عبد القادر حسن المختصر في علوم البلاغة دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة د. ط ، 2001 ص 12.

/9أنظر : أمين الخولي ، فن القول قدم للطبعة: صلاح فضل، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة د. ط ،1996، ص92.

/10أنظر :أمين الخولي،مناهج تجديد البلاغة، دار المعرفة، القاهرة،د. ط ، 1961، ص 125.

/11يوسف أحمد علي،البلاغة العربية، د . ن ، د. ط ، د . ت ،ص27.

/12طه إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي، دار الحكمة، بيروت،د. ط ، د.ت، ص123.

/13أنظر: المرجع السابق ، ص125.

/14مصطفى عبد الرحمان إبراهيم،النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة،د. ط ، 1419-1998، ص109.

/15فن القول، مرجع سابق، ص13

/16ضيف شوقي ،البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف ، القاهرة، ط2، د. ت ، ص287

/17أنظر: البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص288

/18المرجع السابق، ص288.

/19يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم،ج1، تحقيق نعيم زرزور،ط2، 1407- 1987، ص181.

/20السبكي بهاء الدين ، عروس الأفراح، مطبعة السعادة، القاهرة ،د. ط ، 1342، ص99.

/24مفتاح العلوم ،مرجع سابق، ص164.

/21المرجع السابق،ص162.

/22القزويني الخطيب، المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين،د. ط ، د . ت ، ص163.

/23القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، حققه عبد الحميد هنداوي،د. ط ، د . ت ،ص86.

/24المراغي أحمد مصطفى ، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة الحلبي، القاهرة،د. ط ، 1950، ص27.

/25البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص 313

/26الحموي ياقوت ، معجم الأدباء، ج7، دار المأمون، القاهرة، د. ط ،د. ت ، ص306.

/27المقدمة ، مصدر سابق، ص520.

/28البلاغة تطور وتاريخ، مرجع سابق، ص 313.

/29مبارك مازن، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، بيروت،د. ط ، د.ت، ص111 .

/30مطلوب أحمد دراسات بلاغية ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر،د. ط ، د . ت ، ص14.

/31المرجع السابق، ص42.43.

/32أنظر فن القول، مرجع سابق، ص 215.220.

/33فضل صلاح ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته،ط1، دار الشروق، القاهرة،د. ط ،1998،ص173.174.

/34الشايب أحمد،الأسلوب ،مكتبة النهضة المصرية،ط8، 1411- 1991، ص29.

/35أنظر:مطلوب أحمد ، مناهج بلاغية، ص34.

/36أرسطو، فن الخطابة، ترجمة: قنيني عبد القادر، افريقيا الشرق الدار البيضاء، ط1،2008،ص61.

/37أنظر:الكواز، البلاغة النقد المصطلح النشأة والتجديد، الانتشار العربي، بيروت، لبنان،ط1،2006،ص178.

/38حسين طه ، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ضمن( نقد الشعر)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ط ، 1938، ص67.

**قائمة المصادر والمراجع:**

/1أحمد مصطفى المراغي ، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مطبعة الحلبي، القاهرة، د. ط ، 1950.
/2الجاحظ، البيان والتبيين ،ج1ظ، شرح غريب ألفاظه حسن أفندي الماكهاني،المطبعة العلمية،ط1،1311هـ.
/3الحموي ياقوت ، معجم الأدباء، ج7 ،دار المأمون، القاهرة ،د . ط ، د. ت.
/4الخطيب القزويني، التلخيص في علوم البلاغة، حققه عبد الحميد هنداوي، د. ط ، د.ت.
/5الخطيب القزويني، المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين، د. ط ،د.ت.
/6أرسطو، فن الخطابة، ترجمة: قنيني عبد القادر ، افريقيا الشرق، الدار البيضاء،ط1، 2008.
/7السبكي بهاء الدين ، عروس الأفراح، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ط ،1342.
/8السيوطي عيسى الحلبي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج1،دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د. ط ، 1968.
/9الشايب أحمد، الأسلوب،مكتبة النهضة المصريةط8،،1411- 1991.
/10الكواز كريم، البلاغة النقد المصطلح النشأة والتجديد، الانتشار العربي، بيروت، لبنان،ط1،2006.
/11أمين الخولي ، فن القول،قدم للطبعة: صلاح فضل، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، د.ت، 1996.
/12أمين الخولي، مناهج تجديد البلاغة، دار المعرفة، القاهرة، د. ط، 1961.
/13حسين طه ، تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر ضمن( نقد الشعر)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،د.ط 1938.
/14خليل ندا، التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، رسالة لنيل درجة دكتوراه.
/15ضيف شوقي ، البلاغة تطور وتاريخ،ط2،دار المعارف ، القاهرة.
/16طه إبراهيم،تاريخ النقد الأدبي، دار الحكمة، بيروت، د. ط ، د.ت.
/17فضل صلاح ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة،ط1،1998.
/18مبارك مازن، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، بيروت، د. ط ، د.ت.
/19مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ،النقد الأدبي القديم عند العرب ، مكة للطباعة، 1419 -1998.
/23مطلوب أحمد دراسات بلاغية ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، د. ط ، د.ت.
/20عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسه الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، د. ط ، 2002.
/21عبد القادر حسن،المختصر في علوم البلاغة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط،2001
/22يوسف أحمد علي، البلاغة العربية، د. ن.
/23يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، ج1، تحقيق نعيم زرزور،ط2، 1407– 1987.